الفصل الثاني

الحب الأول في حياتي

عندما بدأت أنا وابن خالتي منيرة الذهاب إلى المدرسة أصبحت حياتنا واضحة المعالم. فقد انضممنا إلى مدرسة أنشأتها الأمم المتحدة للأطفال الفلسطينيين في عمّان. ولبسنا مرابيل ذات لون أزرق فاتح وأكمام طويلة، وكان شعرنا مضمومًا للخلف بشريط أبيض. كان يُسمح لنا بلبس قرط صغير وساعة فقط، لكن لم يسمح لنا بلبس الخواتم ووضع المكياج. كان الأولاد والبنات يتعلمون في غرفة صفية منفصلة، للأولاد معلم وللبنات معلمة انسجامًا مع عاداتنا وتقاليدنا. وكان الدين الإسلامي جزءًا أساسيًّا من المنهج، لكن سُمح للأطفال الفلسطينيين المسيحيين في المدرسة بالاختيار بين حضور حصص الدين أو عدم حضورها.

كنت أنا ومنيرة نمشي كل يوم للمدرسة التي تبعد نحو ثلاثة أميال عن منزلي، سواء تحت الشمس أو تحت المطر. وذهبت سميرة ونعمة أيضًا إلى مدرسة الأمم المتحدة، لكنهما كانتا تحضران الحصص في الفترة المسائية، بينما كنت أنا ومنيرة نحضر الحصص الصباحية. أحيانًا كانت خالتي ترافقنا. وعندما كنا نذهب وحدنا كانت أمي تحذرنا بألا نتكلم مع أي أحد لا نعرفه، أو نقبل الحلوى أو المكسرات منه. كان قصدها أن تحمينا من الغرباء، لكن أيضًا أن تمنعنا من لقاء الأولاد بعيدًا عن أعين أقربائنا الذكور.

بدأت في المدرسة أتعلم قراءة اللغة العربية وكتابتها، وقراءة القرآن والدروس الإسلامية. كنت من أطول الفتيات في الصف؛ لذلك كان علي أن أجلس في آخر الغرفة. لكن عندما كنت أقرأ القرآن كانت معلمتي، الآنسة هاجر، تنقلني إلى الصف الأمامي؛ حتى تستمع إلي بشكل أفضل، وكانت الطالبات الأخريات يتوقفن عن الثرثرة، ويستمعن بوقار.

عندما بلغت العاشرة قررت أن أرتدي الحجاب، كان يجب على الفتيات أن يغطين رؤوسهن حالما يختبرن حيضهن الأول، لكنني شعرت باكرًا بأنني جاهزة لارتداء الحجاب، فبالنسبة إلي كان الحجاب رمزًا للإيمان؛ لذلك أخبرت أمي بأنني أريد حجابًا خاصًّا بي، ووافقت على الذهاب معي إلى المتجر في اليوم اللاحق، أما نعمة وسميرة فقد هزتا رأسيهما غير راضيتين.

obeikandl.com

«لماذا تفعلين هذا؟ أنت ما زلت صغيرة، وليس عليك أن ترتدي الحجاب بعد!».

«لأنني أريد ذلك!».

أخذتني أمي في الصباح إلى محل ثياب في وسط المدينة (عمّان) وسمحت لي بمعاينة المناديل؛ حتى أجد واحدًا يعجبني. انتهى بي المطاف باختيار منديل ذي لون أخضر فاتح جعل عينيّ العسليتين تبدوان خضراوين، وعندما ارتديته ذاهبة إلى المدرسة في اليوم اللاحق دهشت زميلاتي في الدراسة، وهنأنني بحرارة، فقد كنت أول طالبة في الصف ترتدي الحجاب، ما جعل المعلمة هاجر تبتسم لي.

«بوركتِ يا فدوى، أنت تبدين جميلة جدًّا!».

لم يكن الحجاب الطريقة الوحيدة التي نضجت مبكرًا من خلالها. فمنذ أن كنت فتاة صغيرة كنت أسمع قصصًا عن الحب. اعتقدت أنه من المقدر لي أن ألتقي شابًّا صالحًا، وأقع في حبه؛ ولأني كنت قادرة على تخيل الأمر كنت واثقة أنه سيتحقق، سوف يكون هذا الشخص وسيمًا وطيبًا معًا، وسوف يوافق والدانا على زواجنا، ويتخذان التدابير اللازمة لذلك، ونقوم بتربية أطفالنا الذين هم تعبير ملموس عن حبنا، كل شيء مستحيل يبدو في متناول أيدينا، عندما نكون صغارًا.

كنت في الثالثة عشرة، عندما رأيت أول مرة الشاب الذي سيصبح رفيقي السري. غادرت أنا ومنيرة المدرسة بعد الظهر، وفي تلك الأثناء مرّ بنا في الشارع مجموعة من ثلاثة شبان بدوا في عمرنا نفسه أو أكبر قليلًا، وكان هو أطول أصدقائه.

«إنه وسيم» أخبرت منيرة.

لم أكن أعرف اسمه في ذلك الحين؛ لذلك أطلقنا عليه أنا ومنيرة لقب (الفتى الوسيم).

التفتت منيرة لتنظر نظرة أوضح.

«يا إلهي! إنهم ينظرون إلينا!».

غيّرنا أنا ومنيرة اتجاهنا، وقطعنا الشارع إلى الجهة الأخرى هربًا منهم، لكنهم تبعونا. ومن حين إلى آخر كانت إحدانا تلتفت لتتحقق من الأمر، وتجد أنهم لا يزالون وراءنا على بعد بضع خطوات منا.

obeikandl.com

لم أستطع السماح لهم للحاق بنا، فعلى الرغم من أنني أردت أن أتعرف إليه، إلا أنني كنت خائفة من أن يراني أحد أقربائي أو أحد أصدقاء العائلة أتحدث معه، فعندئذ سيخبرون والديّ، فلا يُسمح للنساء في مجتمعنا الشرقي بأن يرتبطن بعلاقات صداقة مع الرجال قبل الزواج. لذلك إذا وجدنا أنفسنا مرتبطين بعلاقة صداقة، فعلينا عندئذ أن نحرص على كتمانها، ولا نخبر أحدًا إلا الأصدقاء المقربين جدًّا.

بعد ذلك كنت أرى (الفتى الوسيم) كل صباح بالقرب من المدرسة وكل مساء، عندما كان يمر بمنزلي. لقد كان يتحدث بصوت مرتفع مع أصدقائه، أو يصفر ليجذب انتباهي، وبينما كنت أقف أمام نافذة غرفة المعيشة التي كانت تطل على الشارع قمت بإزاحة الستارة قليلًا لأراه، فرآني أنظر إليه، وأبرق وجهه بأحلى ابتسامة شاهدتها في حياتي. احمرّ خداي خجلًا، ووقعت في حبه.

بذلت قصارى جهدي لأحتوي هذه المشاعر الجديدة، إلا أنني لم أتحدث إليه أبدًا، وعندما كنت أراه، وأبتسم كان علي أن أتظاهر بأن منيرة قالت شيئًا مضحكًا، ولم يكن أحد يعرف السبب الحقيقي وراء سعادتي الجديدة، ولم أعرف شيئًا عنه، لكنني أتذكر وجهه وبنيته الطويلة، ولاحقتني ابتسامته في كل مكان. كنت أتمنى أن أعرف المزيد عن هذا الفتى الغامض، لكن مجتمعي أحاط بي من كل جانب.

يا فتاي الغامض،

حب من أول نظرة

أحببتك من أول يوم رأيتك فيه

وقعت في حب ابتسامتك

عندما أراك أطير فرحًا

أطير كفراشة في حديقة الجمال

لن يمل قلبي من رؤياك

أحبك من كل قلبي يا حبيبي

obeikandl.com

بالطبع كتبت هذه الكلمات لنفسي، فقد كان من المستحيل أن أريه إياها. وخلال عام كامل كنا فقط نتبادل النظرات، وبعد انتهاء المدرسة كنت أنا ومنيرة نمشي راجعتين إلى المنزل لنتناول طعام الغداء، وننهي فروضنا المنزلية، ثم نلتقي مجددًا. كانت منيرة كل مساء ترى الولد الوسيم مع صديق له يقف أمام البقالة المقابلة لمنزلنا، محاولًا أن يراني، كنا نختلق الأعذار لمغادرة المنزل، مثل أن نخبر أمي بأننا ذاهبتان لشراء حاجات مدرسية أو للتمشى أو شيء من هذا القبيل. فبغض النظر عن عدد المرات التي رأينا فيها بعضنا (من بعيد) خلال اليوم، إلا أنني لم أملّ رؤيته أبدًا.

في أحد الأيام مررنا من أمامه، هو وأصدقاؤه، فتبعنا.

همست لمنيرة قائلة: «هذا يكفي! أريد أن أتحدث معه. لقد مضى عام منذ أن رأينا بعضنا أول مرة، وأنا لا أعرف شيئًا عنه إلا أنني أحبه».

كانت منيرة مترددة قليلًا.

«ماذا لو رآنا أحد نتحدث إلى صبي؟ سوف تقتلنا عائلتانا».

«أعرف هذا يا منيرة، لكن لا أقدر على التحمل بعد الآن».

على الرغم من هواجس منيرة اخترعت فورًا خطة لألتقي الولد الوسيم.

«دعينا نمشِ في شارع المدرسة ربما سيتبعنا، ويفهم أننا نريد التحدث معه؛ لأن المدرسة أغلقت أبوابها الآن. لن يرانا أحد؛ لأنه لا يوجد بيوت بالقرب من المدرسة».

بقينا أنا ومنيرة نمشي بين منازل الحي لنصل إلى الشارع المؤدي إلى المدرسة. ثم التفتت منيرة خلفها لتتأكد أنهم يتبعوننا، وقالت بنبرة عالية.

«نعممممممم!!! إنهم وراءنا!».

ثم قالت منفعلة: «أخيرًا يا فدوى، سوف تحظين بفرصة التحدث معه اليوم، سوف يكون هذا اليوم أسعد أيام حياتك، يا أميرة فدوى!».

كان قلبي يخفق بسرعة متأرجحًا بين البهجة والخوف.

واصلت أنا ومنيرة المشي نحو المدرسة. كان الفتيان خلفنا، لكن بعيدون قليلًا، نحو ٥٠

قدمًا، حتى إذا رآنا أحد، فلن يعرف أننا سنلتقي، مشيت أنا ومنيرة نحو ستة أميال للمدرسة، والتففنا نحو ساحة خلف المدرسة. هناك كان عشب الربيع الأخضر مغطى بزهور حمراء وبيضاء وصفراء، وفيه صخور كبيرة تكفي للجلوس عليها.

مسكت منيرة يدي هامسة: «إنهم قادمون نحونا يا فدوى!».

«أنت تجعلينني متوترة يا منيرة».

«لا، أنا مبتهجة من أجلك».

«أعرف ذلك، لكن ---».

تركت منيرة يدي مبتعدة عني، ووقف صديق الفتى الوسيم نحو ٥٠ قدمًا بعيدًا عنا، ثم مشى الفتى الغامض نحوي، وحيدًا.

«مرحبًا» كانت تلك الكلمة الأولى التي أسمعه ينطقها.

«مرحبًا» رددت عليه.

«اسمي أحمد، وأنت؟».

«أ --- ننا، فـ - فـ - فدوى».

لم يسعفني لساني، وانهمرت الدموع على خدي، جلسنا على صخرة دون أن يتلامس جسدانا. تحدث إلي بشجاعة، لكني شعرت بالخجل الشديد، ولم أقل الكثير.

«إذن اسمك فدوى. إنه اسم جميل، لقد انتظرت هذه اللحظة عامًا كاملًا؛ لأتحدث معك، وأتعرف إليك. أنت أعجبتني كثيرًا، وقد حاولت أن أخبرك بأنني لست مثل الفتية الآخرين الذين يريدون اللهو فقط. أنا دائمًا أفكر فيك، وأحيانًا عندما أكون وحدي أبكي إذا مر يوم دون أن أراكِ».

لم أصدق أنه شعر بشعوري نفسه، أردت أن أصرخ، وأقفز عاليًا، لكن بدل ذلك جلست على سجادة الزهور على الأرض. واستمر أحمد في الحديث.

«حسنًا يا فدوى، ماذا تريدين أن تعرفي عني غير اسمي؟».

ابتسمت بخجل.

obeikandl.com

«أي شيء تريد أن تخبرني به، أنا أستمع».

«حسنًا، كما قلت لك: أنا اسمي أحمد، وأنا مغرم بك».

انحنى، والتقط زهرة حمراء كرزية، وأعطاني إياها.

«شكرًا. سوف أحتفظ بها في دفتر يومياتي».

قطفت زهرة بيضاء، وأعطيته إياها؛ ليحتفظ بها أيضًا في دفتر يومياته.

وفجأة رجعت لصوابي، ونظرت إلى الساعة. أصبح الوقت متأخرًا، وكانت أمي تعتقد أنني في منزل منيرة، سوف تأتي للبحث عني بعد قليل، وإذا اكتشفت أنني ومنيرة لسنا موجودتين هناك سوف تهلع، فلم يكن عندنا هاتف منزلي حتى تتصل، وتطمئن علي، لذلك كان علي أن أراقب الوقت بحذر؛ حتى لا أثير شكوكها. بدا أحمد قلقًا، عندما وقفت لأغادر.

«لكن كيف سأراك مرة أخرى؟».

ولأنه ليس عندنا هاتف منزلي، ولا نستطيع التحدث في الأماكن العامة قررنا أن نكتب لبعضنا ملاحظات، ونتركها تحت الصخرة التي كنا جالسين عليها، فبهذه الطريقة يمكننا أن نتواصل سرًّا، وأن نخطط للمواعيد والأماكن التي سنلتقي فيها. كان من الأسهل على أحمد مغادرة المنزل دون أن يثير الشكوك؛ لأنه صبي، لذلك أخبرته بأنني سوف أعلمه متى سيمكنني مقابلته مرة أخرى.

«حسنًا، وداعًا الآن. أنا على أحر من الجمر لرؤيتك مرة أخرى يا فدوى».

«وأنا أيضًا، وداعًا أحمد».

رأته منيرة يغادر، وركضت نحوي.

«أخبريني، عن ماذا تحدثتما؟ ما اسمه؟ هل سترينه مرة أخرى؟ هل أنت سعيدة؟».

«نعم، أنا سعيدة».

«أخبريني! أخبريني! هيا!».

«اسمه أحمد. أريد أن أطير مثل الفراشة مع كل طيور السماء، وأخبر العالم كله بأني سعيدة جدًّا! أنا مغرمة بأحمد».

obeikandl.com

عبرنا الشارع، واتجهنا للمنزل، ثم وكزتُ منيرة، قائلة:

«انظري يا منيرة، جميع من في الشـارع سـعداء. أنا أشـعر بالناس سعداء وراء أبوابهم المغلقة، أرى كل راكب في السيارات مبتهجًا، وحتى الأشجار تشاركني سعادتي».

اقتربنا من متجر صـغير لبيع أشرطة الكاسيت. أردت أن أشتري شريطًا لأعطيه أحمد، لكنني تركت نقودي في المنزل؛ لذلك سألت منيرة إن كانت تستطيع إقراضي بعض النقود؟

«لا، لقد تركت نقودي في المنزل أنا أيضًا، لكن سوف نمرّ على المتجر غدًا بعد المدرسة لتشتري واحدًا».

«لا أستطيع الانتظار للغد. أريد أن أشتريه هذه الليلة».

اعتاد أبي أن يعطيني أنا وأخواتي وإخواني مصـروفًا شـهريًّا يبلغ نحو ٣ دنانير، اعتدت دائمًا على ادخار نقودي، لكن كانت هذه مناسبة خاصة.

«أراكِ غدًا صباحًا يا فدوى».

انتظرت حتى توارت عن أنظاري لأدخل منزلي؛ لأنني لم أرد أن تسمعنا أمي نتحدث.

«السلام عليكم يا أمي».

«وعليكم السلام يا فدوى، لقد أعددت كعكة هل منيرة أتت معك؟».

«لا، إنها في منزلها».

«هل أنهيت واجباتك المدرسية؟».

«نعم، يا أمي، شكرًا على الكعكة».

لم تدخل أمي المدرسـة أبدًا، ولم تعرف القراءة والكتابة، لكنها شـجعت جميع أولادها على الدراسة.

«أنا سـعيدة؛ لأن الفرصة أتيحت لك لتذهبي للمدرسة يا فدوى. كنت أتمنى لو أن والديّ أرسلاني إلى المدرسة».

فكرت في أنني لو تحدثت معها حول هذا الموضـوع، فلربما لن تسـألني أسئلة أخرى عمّ فعلت ذاك المساء؟

obeikandi.com

«أمي، لماذا لم يسمح لك والداك بأن تذهبي إلى المدرسة؟».

«آه، كانت الأمور مختلفة حينذاك. فقد اعتقد الجميع أن المدرسة للصبيان فقط».

قبلت يدها، وتمنيت لها ليلة سعيدة، ووعدتها بأن أدرس بجد من أجلي ومن أجلها.

بعد ذلك بدأت أنا وأحمد نتواصل من خلال الرسائل، وكنا نتقابل وجهًا لوجه عندما نستطيع. وأصبحت الصخرة الكبيرة خلف المدرسة التي جلسنا عليها بقرب بعضنا هي مكاننا السري. بدت هذه الصخرة جميلة بالنسبة إلي، فقد كانت الشيء الوحيد الذي يقف بين يده التي تضع الرسالة ويدي التي تحصل عليها.

كنت أذهب في المساء إلى غرفة نومي، كانت أختي الكبرى نعمة متزوجة حينذاك، لذلك أصبحت أتشارك الغرفة مع شخص واحد فقط، مع أختي الأخرى؛ سميرة. أخرجت دفتر يومياتي، وبدأت أكتب قصائد لأحمد. لكنني لم أستطع أن أخاطر بأن يكتشف إخوتي الدفتر، ثم يخبرون جميع من في المنزل، وأقع في مشكلة كبيرة. لذلك اخترعت لغة سرية لا يستطيع أحد فهمها إلا أنا، أردت أن أتذكر كل شيء حدث، فكتبت عن أول لحظة رأيت فيها أحمد وعن لقائنا الأول. لكن لم يكفِني أن أكتب لنفسي فقط، لذلك وجدت نفسي أكتب قصيدة بالعربية لأحمد. وقررت أن أتركها تحت الصخرة في اليوم المقبل بعد المدرسة. لقد أمضيت ساعات في كتابتها:

أحلف لك

إني لن أنساك أبدًا

في ورد الربيع

كل يوم، كل ليلة

كل صباح، كل مساء

في كل نبضة ينبضها قلبي

كل ساعة، كل دقيقة، كل ثانية

في كل دمعة وكل ابتسامة، سوف أتذكرك

obeikandl.com

عندما أبكي، عندما أبتسم

في كل مرة أرى طفلًا، أو شخصًا يشبهك

سأتذكرك عندما يملأ قلبي الأمل

سأتذكرك عندما يملؤه الألم

عندما أكون مريضة

عندما أسافر

في كل غياب

وحزن وأسى

في كل حركة

سوف أتذكرك مع كل ابتسامة

عندما يعود جميع المسافرين من رحلتهم

في كل بهجة

سأتذكرك كل لحظة

أحلف لك

إني لن أنساك أبدًا

سأتذكرك، عندما تأوي الطيور لأعشاشها، وتطعم صغارها

عندما تهاجر الطيور من الجنوب للشمال

سأتذكرك عندما تلتقي الأمواج الزرقاء

بالشاطئ ذي السحر الأبيض

عندما تشرق الشمس على الجزر المهجورة

أحلف لك

obeikandl.com

لن أنساك أبدًا

لأنني سأراك في كل لوحة

سأراك في كل ممثل ومغنٍ

وسأتذكرك في كل نغمة موسيقية

لأنني سأراك في كل شيء حولي

في الماضي والحاضر والمستقبل

لأن المستقبل دونك

هو مستقبل مظلم

أنت حياتي

أحلف لك

إنني لن أنساك أبدًا

حتى لو لم أتزوجك أبدًا

وأنجب أطفالًا من شخص آخر

لكن سأرى صورتك في كل طفل وُلد

أحلف لك

لن أنساك أبدًا

حتى عند الممات

عندما لا أراك أو أسمعك

ولا أرى ابتسامتك

أو أسمع همستك

أو صوتك

obeikandl.com

سيؤلمني الموت

لأنه سيحرمني منك

لكنني لن أنسى

صورتك هنا في قلبي

أحلف لك

لن أنساك أبدًا

سأحبك من كل قلبي

حبيبتك، فدوى

بعد أن انتهيت من كتابة القصيدة خبأتها تحت ملابسي، وضغطت عليها لأمهدها؛ حتى لا يراها أحد. نادت أمي على جميع أولادها ليصلوا، ويتناولوا طعام الغداء. ثم بسطت مفرشًا بلاستيكيًّا على الأرض، وجلسنا في حلقة حول الطعام.

«يا أطفال، ردّدوا ورائي: بسم الله الرحمن الرحيم».

أكلنا حمصًا مع زيت زيتون وجبنة وخبزًا طازجًا وبطاطس مقلية، وشربنا الماء، لكن لم يسمح للأطفال تحت سن الخامسة عشرة بأن يشربوا الشاي. وعندما انتهينا من تناول الطعام قلنا: «الحمد لله». ثم جعلتنا أمي نذهب لنغسل أيدينا، وننظف أسناننا قبل النوم.

ذهب الأولاد إلى غرفتهم، وذهب والدانا إلى غرفتهما أيضًا. تشاركت أنا وسميرة الفرشة نفسها، ورفعنا البطانية حتى ذقوننا. كان المصباح منطفئًا، ونامت سميرة بسرعة، لكنني بقيت مستيقظة أفكر في أحمد حتى الساعات الباكرة من الصباح.

أيقظتنا أمي في الصباح لنذهب إلى المدرسة. ثم قبلنا يديها، قائلين: «صباح الخير يا أمي».

ثم قالت لنا: «الله يرضى عليكم. اذهبوا، وتوضؤوا، وصلوا حتى أحضر لكم الفطور».

وهكذا صلينا، وأكلنا، ولبسنا لننطلق إلى المدرسة. تأكدت أن رسالة أحمد معي، وأيضًا نقودي من حصالتي، دينار واحد؛ لأشتري شريطًا لأحمد.

obeikandl.com

قرعت منيرة الباب.

«السلام عليكم خالتي».

ردت أمي: «وعليكم السلام، انتبها لأنفسكما، وابتعدا عن المشكلات».

وبينما نحن في طريقنا للمدرسة أخبرت منيرة عن الرسالة التي كتبتها لأحمد.

«هل يمكنني أن أقرأها؟».

«ليس هنا في الشارع! عندما نصل إلى المدرسة سنذهب إلى دورة المياه، وسأجعلك تقرئينها».

مشينا على الرصيف، وفجأة مرّ أحمد وأصدقاؤه على الطرف الآخر من الشارع. ابتسم لي، والتفت إلى صديقه قائلًا: «صباح الخير». كان قصده أن يقول: «صباح الخير» لي وليس لصديقه، لكنه لم يستطع أن يقولها لي مباشرة؛ خشية أن يلاحظ أحد من الناس أن صبيًّا وفتاة يتحدثان مع بعضهما في الشارع.

كانت مدرسة الأولاد تبعد صفًّا من البيوت عن مدرسة البنات. وبعد انتهاء المدرسة انتظرنا حتى غادر جميع الطلاب، ثم مشيت أنا ومنيرة خلف المدرسة، ووضعت الرسالة تحت الصخرة، ثم مشينا مبتعدتين. رآني أحمد أغادر، وشعر بأنني تركت شيئًا له.

لم أستطع التوقف لأراه يلتقط رسالتي ويقرؤها، لذلك استمررت أمشي نحو المتجر الصغير عند الزاوية لأشتري شريط الكاسيت. فرحب بي هناك شاب كان يجلس وراء صندوق الكاش.

«مرحبًا. أريد أن أشتري بعض الأشرطة لو سمحت. هل لديك شيء لوردة؟».

كانت وردة المغنية الجزائرية المعروفة لها أغنية مشهورة اسمها «**شعوري ناحيتك**».

«كم سعره؟».

«٥٠ قرشًا».

دفعت ثمن الكاسيت، وشكرته.

في مساء ذلك اليوم، وبعد أن أنهينا واجباتنا المنزلية أتت منيرة إلى منزلي، واستمعنا إلى الشريط قبل أن أعطيه أحمد. وأخبرتها بأنه في حال سأل أحد من العائلة من أين لنا هذا الشريط؟، فسنقول: إننا استعرناه من صديقة لنا في المدرسة.

obeikandl.com

ولحسن الحظ كنت أنا ومنيرة وحدنا ذاك المساء. فقد ذهبت أمي لرؤية أختها، أم منيرة. وكان إخوتي خارج المنزل وسميرة تتعلم الرياضيات عند مُدرّسة خاصة. فشغلت أنا ومنيرة الشريط، وبدأنا نرقص.

«منيرة، أخفضي صوت المسجل! إنني أسمع أحدهم يصفّر في الشارع».

أسرعنا نحو النافذة لنسترق النظر من طرف الستارة. كان ذلك أحمد. أومأ إلي بعينيه، ففهمت أنه يحاول أن يخبرني بأنه ذاهب إلى الصخرة.

«منيرة، اذهبي إلى منزلك، واسألي أمي وأمك إن كنا نستطيع أن نذهب لنتمشى؟».

ضحكت منيرة.

«لا تنسي أن تأخذي الشريط معك يا محبوبة!».

أخرجت الشريط من المسجل، ووضعته في جيبي، ووافقت أمّانا على أن نذهب لنتمشى، شريطة أن نعود للمنزل قبل غياب الشمس. ثم انطلقنا إلى المدرسة، ومشت منيرة مبتعدة عنا. ابتسمتُ لأحمد، وأنا أشعر بالخجل.

«أريد أن أعطيك شيئًا يا أحمد».

«وأنا أيضًا أريد أن أعطيك شيئًا، لكن أولًا كيف حالك؟».

«أنا سعيدة برؤيتك. أنا بخير، وأنت؟».

«أشعر بأن كل العالم يرقص على إيقاع سعادتي. أعجبتني القصيدة التي كتبتها لي. قرأتها مرارًا وتكرارًا. وأنا أيضًا بدأت أكتب قصيدة لكِ، لكني لم أنتهِ منها بعد».

«ياه! هل تحب أن تكتب الشعر أنت أيضًا؟».

«نعم، يا فدوى، وأحب أن أرسم أيضًا».

«وماذا أيضًا؟».

«أنا أعزف الطبلة في الأعراس، وأغني».

obeikandl.com

كانت أمور كثيرة تجمعنا، فقد اكتشفنا أن كلًّا منّا يحب كتابة الشعر والرسم والاستماع للموسيقا والغناء وممارسة شعائر ديننا. وكنّا طالبين مجتهدين يُحبّان مشاهدة غروب الشمس في الأفق. وأخبرته بأنني أحب الموضة أيضًا.

«أعرف ذلك».

«كيف تعرف ذلك؟».

«لقد كنت أنتبه للملابس التي ترتدينها، ولاحظت أنك دائمًا تختارين ألوانًا جميلة، وتلائمين لون أحذيتك مع لون حجابك. وهذا ما جعل جميع الصبيان يتحدثون عن أناقتك».

«ماذا؟ أي صبيان؟».

«الصبيان في المدرسة، عندما يرونك بعد الدوام. وحتى أصدقائي! وهذا بصدق يجعلني أشعر بالغيرة، عندما يتحدثون عنك».

«لماذا تشعر بالغيرة؟».

«لأنك تعجبينني أكثر من أي شخص في العالم. ولا أريد أن يأخذك أي أحد مني».

«اشتريت لك شريطًا» -أعطيته إياه- «**شعوري ناحيتك**».

ثم أعطاني شريطًا للمغني المصري المشهور عبدالحليم حافظ. كان اسم الأغنية «**نبتدي منين الحكاية**».

شكرني أحمد، وسكت قليلًا قبل أن يثير موضوعًا حساسًا.

«فدوى، أعرف من لهجتك أنك فلسطينية. فأنا أدرك ذلك؛ لأن نبرتك ناعمة ولطيفة. إن اللهجة الأردنية خشنة قليلًا، وأمي تتحدث باللهجة نفسها التي تتحدثينها».

نظرت إليه بتمعن.

«أحمد، أشعر بأنك أردني، وأنا أعرف أنه من الصعب على الأردنيين والفلسطينيين أن يعيشوا معًا، فعلى الرغم من أن الحرب انتهت منذ سنين طويلة. لكنني لا أهتم بذلك».

أحمد: «وأنا لا أهتم أيضًا. لقد مر والداي بقصة حب رائعة، عندما كانا شابّين، وقررا أن يتزوجا. لم يعجب ذلك أي أحد في العائلة، لكنهما تزوجا على الرغم من ذلك؛ لذلك قاطعتهما

obeikandi.com

عائلتاهما مدة عشـرين عامًا. وأنا لدي أيضًـا ثلاثة إخوان تزوجوا نسـاء فلسطينيات، ما جعل آباءهن يقاطعونهن أيضًا. إذن يا فدوى، هل مازلت تحبينني بعد أن عرفتِ أنني أردني؟».

«نعم، يا أحمد، أنا ما زلت أحبك. فعندما يطرق الحب بابنا لا يسأل: قلبنا من الطارق؟ أو من أين أتيت؟ أو ما لون بشرتك؟ أو كم من المال معك؟» أنا بلا ريب أريد أن أبقى معك للأبد».

بدا أحمد مرتاحًا.

«وأنا أيضًا أريد أن أبقى معك للأبد. كم من الوقت لديك قبل أن تذهبي إلى المنزل؟ أنا أعرف أن عائلتك تقلق عليك».

أجفلني كلامه.

«ياه، لقد نسيت! انظر إلى غروب الشمس يا أحمد. أليس جميلًا؟».

«هيا يا فدوى، تمنّي أمنية».

«أحمد، هل تريد أن تسمع أمنيتي، أم أقولها في قلبي؟».

«دعيني أسمعها».

«حسنًا. أتمنى أن تبقى ذكرى حبنا للأبد. والآن دورك! تمنَّ أمنية يا أحمد».

«أتمنى أن أتزوجك، ونعيش في منزل على الشاطئ، وننجب طفلتين جميلتين مثلك».

أضفت أنا قائلة: «وأيضًا صبيين وسيمين مثلك يا أحمد!».

«فـدوى، أريد أن تعطيني صـورة، فإنني أراكِ في قلبي، لكنني أحتاج إلى شـيء ملموس يذكرني بوجهك».

قاطعته قائلة:

«أنا لا أريد الذهاب يا أحمد، لكن لا خيار لي، فلا أريد أن تقلق أمي علي».

«حسنًا، أنا أحبك. سأراك المرة القادمة. وسوف آتي كل يوم لأتحقق إن كان يوجد شيء تحت الصخرة، ربما كل بضع دقائق».

بعد يومين ذهبت أنا ومنيرة إلى الإسـتديو لألتقط مجموعة صـور لي. في إحدى الصور ارتديت ثوبًا أحمر فاتحًا، وفي صـورة أخرى ارتديت بلوزة بنفسجية وبنطال جينز، وفي أخرى

obeikandl.com

ارتديت تنورة. أما في الصورة الأخيرة فارتديت ثوبًا فلسطينيًّا تقليديًّا مطرزًا عليه زهور ونجوم ثمانية الرؤوس.

بعد أسبوع شاهدت أحمد، وأريته الصور.

«اختر الصورة التي تعجبك يا أحمد».

«ياه، شعرك طويل! لقد أعجبتني كل الصور».

لم يَرَ أحمد شعري من قبل؛ لأنني كنت دائمًا أرتدي الحجاب.

«حسنًا، خذ ما يعجبك منها. لكن رجاءً اترك واحدة لي، فأنا أريد أن أضعها في دفتر يومياتي».

لم نتعانق أو نتبادل القبلات أبدًا، فقد كان علينا أن ننتظر، حتى نتزوج بحسب تعاليم القرآن.

واستمررنا نلتقي بهذه الطريقة عامًا آخر، نتحدث عن أحلامنا وأمانينا، ونكتب الشعر وأغاني الحب، ونتبادل الأشرطة.

عند نهاية السنة الدراسية التاسعة بدأت أنا ومنيرة نذهب إلى مدرسة حكومية، وكان هذا هو الوقت الذي التحقنا فيه بفروع أكاديمية بحسب اهتماماتنا وقدراتنا، اختارت منيرة دراسة تصميم الأزياء. أما أنا فقد مكنتني علاماتي ودرجاتي من أن أختار الفرع الطبي لأحضّر نفسي لكلية الطب، وأصبح طبيبة، لكن كانت تلك أول مرة أذهب فيها لمدرسة تحتوي على طالبات فلسطينيات وأردنيات معًا، وقد أردت أن أبقى مع صديقاتي.

وفي النهاية اخترت فرع العلوم الاجتماعية، مُخططة أن أصبح معلمة. بقيت أنا ومنيرة في المدرسة نفسها، لكن في صفين منفصلين. وكان برنامجنا اليومي يتغير باستمرار، فشهرٌ نحضر الحصص من ٧:٣٠ صباحًا إلى ١٢:٣٠ مساءً، وشهرٌ آخر من ١٢:٣٠ مساءً إلى ٤:٣٠ مساءً. لذلك كان من الصعب إيجاد وقت نمضيه معًا، لكننا تدبرنا أن نلتقي خلال الاستراحات وعند وقت الغداء، واستمررنا نزور بيوت بعضنا في المساء. وقد شعرنا بالوحدة في صفينا، فنحن منذ الطفولة كنا نادرًا ما نمضي وقتنا بعيدتين عن بعضنا.

التقيت كثيرًا من الفتيات في الصف، وبدأت أشعر بالقرب منهن. وقد وثقن بي كفاية ليخبرنني بأي شيء دون خوف أن يعرف أحد أسرارهن. أما أنا فقد كنت حذرة في علاقاتي مع الآخرين.

obeikandl.com

احتجت إلى مدة لأتعود على الدراسة مع فتيات أردنيات، وقد كان في الغالب صديقاتي فتيات فلسطينيات مثلي في الصف؛ لأن الفتيات الأردنيات كنّ يضايقننا. وكان هناك فتاة بالذات، اسمها تهاني، تتباهى بأن أباها يعمل في دائرة المخابرات العامة، فكلما كنا لا نستجيب لمتطلباتها كانت تذكرنا بعلاقات والدها الحكومية، وتهددنا باستجواب عائلاتنا، وإذا تقدمت إحدى الطالبات بشكوى ضدها لدى المعلمة كان ذلك يتسبب في رفع تقرير لدائرة المخابرات. لم نكن متأكدات أنها تستطيع فعلًا تنفيذ تهديداتها، لكن مجرد التلميح لذلك كان يخيفنا، لدرجة أننا كنا نحاول تجنبها قدر المستطاع. فلا واحدة منا نسيت كيف كان الوضع خلال الحرب، ولم نرد أن نثير أي شبهات غير مستحبة، إلا أن بعض الفتيات الأردنيات كنّ لطيفات معنا، فقد كان هناك فتاة مسيحية أردنية تدعى (إلين) تتحدث معنا خلال الاستراحات بين الحصص، وبقينا صديقتين طوال مرحلة الدراسة الثانوية، ومازلنا على اتصال.

خلال مرحلة الدراسة الثانوية كانت لي صديقة فلسطينية مقربة تدعى (باسمة). درست باسمة من الصف الأول إلى التاسع في مدرسة حكومية، (باسمة) لم يكن والداها من الذين أجبروا على الخروج من فلسطين، وإنما خرجا باختيارهما؛ لذلك لم تلتحق بمدرسة الأمم المتحدة للإغاثة، وكان على والديها أن يدفعا أقساط المدرسة. وبعد ذلك انتقلت إلى مدرسة الزبيدية، حيث التقيتها، وبعد أن مضت مدة من التعرف بها، اعترفت لها بأنني وقعت في حب أحمد، وأخبرتها لاحقًا عن علاقتي السرية بأحمد، عندما كنا نمشي في أحد الأيام إلى المدرسة، إلا أنني لم أخبر معظم صديقات الدراسة عن مشاعري خوفًا من أن يزلّ لسان إحداهن، وتخبر أخاها الذي بدوره سيخبر أباه أو عمه أو جاره، وتصل الحكاية لمسامع والديّ اللذين سوف يمنعاني من رؤية أحمد. ولم يقتصر الوضع على معرفة أبي وإخواني بالموضوع، بل يتعداه لكون أحمد أردنيًّا وأنا فلسطين. كان يسمح لي بأن أصادق فتيات أردنيات، لكن من المستحيل أن يسمح لي والداي بأن أتزوج رجلًا أردنيًّا. ولكنني كنت متأكدة من أن باسمة إنسانة جديرة بالثقة، فقد كانت تفهم موقفي، وتحفظ سري، لقد شعرت بالراحة لوجود صديقة أثق بها، ونسهر مع بعضنا نتكلم عن أشياء يستحيل أن أخبر بها شخصًا آخر.

إضافة إلى ذلك، أطلعتني باسمة بعد مدة قصيرة على أسرارها الخاصة، وَأْتمنتني عليها. فقد أخبرتني عن شاب يقود سيارة يتبعها منذ أسبوعين.

«فدوى، أريد أن أتحدث معه، لكنني لا أثق في أي شخص لأخبره بذلك، وأبي يريدني أن أتزوج أحد أولاد عمي، لكني لا أحب أحدًا منهم».

شعرت بالأسى نحوها؛ لأنها كانت مجبرة على أن تتزوج شخصًا لا تحبه.

«فدوى، هل يستحق الأمر العناء؟ أعني الحب. هل هو فعلًا جميل، أم مجرد شيء يتخيله مؤلفو الروايات؟».

«آه يا باسمة، الحب أروع شيء في الدنيا. فهو يجعلك سعيدة طوال الوقت».

تنهدت باسمة.

«فدوى، أريد أن أقابل رفيقك، وأريد أن أتحدث مع ذاك الفتى الذي يتبعني، هل لكِ أن تكوني معي، عندما أتوقف للحديث معه؟ فهذا سيشعرني بالأمان؛ لأنك ستراقبين المكان، وتُعلميني إذا أتى أحدهم».

وافقت على طلبها، وعرّفتها لاحقًا إلى منيرة، ولم يَمْضِ يوم إلا وأصبحت صداقتنا أقوى. كنا نجلس بجانب بعضنا نتحمل عددًا من الصدامات الغريبة التي تحدث في الصف بين الفتيات الأردنيات والفلسطينيات اللواتي كنّ يتعلمن كيف يعشن مع بعضهن.

وفي أحد الأيام بدأت خمس طالبات: ثلاث فلسطينيات واثنتان أردنيات، يتجادلن حول من أجمل فتاة في الصف: ليلى (فتاة أردنية) أم أنا؟ لكن ما لبث أن اتضح أنهن كن يتجادلن حول ما إذا كانت الفتيات الأردنيات أجمل أم الفلسطينيات؟ في بداية الأمر كنت أنا وباسمة مشغولتين بالتحدث مع بعضنا، لكن سرعان ما سمعنا طالبة أردنية تنادي بأعلى صوتها بأن يصوّت الجميع حول هذه القضية، سمعت اسمي، وأخبرت الفتيات الأخريات بأن ما يفعلنه لا يعجبني، لكنني أجبرت على السكوت، تم احتساب الأصوات، وفزت أنا بمسابقة الجمال فوزًا ساحقًا، بمعدل ثلاثين صوتًا لي وخمسة لليلى. ثم بدأت جميع الفتيات الفلسطينيات بالهتاف؛ لأن فوزي كان فوزهن.

وقفت على طاولة، وصحت قائلة: «إن ما تفعلنه خطأ! نحن كلنا عائلة واحدة، لا نريد أن نعيش في ظل أخطاء أجدادنا! سوف ندرس مع بعضنا ثلاث سنوات في هذه المدرسة، لذلك عليكن أن تحللن خلافاتكن، وتساعدن بعضكن، وتضعن حدًّا لهذه الآراء المسبقة».

obeikandl.com

في تلك اللحظة فتحت المعلمة باب الصف جاهلة تمامًا ما حدث توًّا، وقفزت من أعلى الطاولة على الأرض.

سألت المعلمة: «ما الخطب يا فدوى؟».

«لا شيء يا معلمتي».

سكتت جميع الطالبات، ورجعت أنا إلى مقعدي.

سألتني باسمة خلال الاستراحة عن المكان الذي قابلت فيه أحمد؟، فأخبرتها عن مكاننا السري وراء المدرسة القديمة، وبعد المدرسة كنت أنا ومنيرة وباسمة متجهات نحو المنزل معًا، وسرعان ما رأينا أن الشاب الذي تستلطفه باسمة كان يتبعنا.

«لنذهب وراء المدرسة، ونتحدث معه!».

وافقنا على ذلك، لكني حذرتها بألا تركب في سيارته؛ لأنها لا تعرفه بعد، ثم مشينا خلف المدرسة، وركن الشاب سيارته على بعد صفين من المنازل. وقفت أنا ومنيرة بعيدًا؛ لنعطيهما خصوصيتهما. وبينما كنا ننتظر أخبرتني منيرة عن صديقة أمها.

«فدوى، زارتنا سيدة في الليلة الماضية، وأخبرت أمي عن ابنها الذي يعمل في السعودية، والذي سيأتي للأردن قادمًا الأسبوع المقبل يريد أن يتزوجني، وأخبرت أمي بأنني الفتاة المناسبة لأكون زوجة لابنها».

«ما رأيك يا منيرة؟ هل تريدين الزواج منه؟».

«لست متأكدة. سوف أنتظر شهرين حتى يصل للأردن، ثم سأقرر».

بعد مدة وجيزة أتت باسمة نحونا.

«يريدني أن أذهب معه بالسيارة، هل تريدان أن ترافقاني؟».

«لا! لا تذهبي معه إلى أي مكان! قابليه هنا إلى أن تتعرفي إليه جيدًا. لقد أمضيت أكثر من عام مع أحمد قبل أن أذهب معه لأي مكان، وما زلت أقابله هنا. هل تريدين أن تكتشف عائلتك الموضوع، وتقتلك؟».

«بالطبع لا».

obeikandl.com

أخذت باسمة بنصيحتي، ورجعت تخبر صديقها الجديد بأن عليها أن تنتظر حتى تتعرف إليه بشكل أفضل قبل أن تذهب معه لأي مكان. ثم ودّعا بعضيهما، وضحك مخبرًا باسمة بأنها محظوظة؛ لأن لديها صديقات يهتممن كثيرًا بسلامتها.

رجعت إلى الصخرة، وتركت ملاحظة لأحمد طالبة منه فيها أن يقابلني مرة أخرى.

«باسمة، إن كنت سترين هذا الشاب مجددًا، فعلي أن أخبر أحمد، فلا أريد أن يراني أي شخص هنا معك، ويخبر أحمد بأنني أتيت لألتقي شابًّا آخر، فلربما لا يعرف هذا الشخص أن هذا الشاب جاء هنا ليراك أنت».

لم تسمع كلمة واحدة قلتها.

«آه يا فدوى، اسمه عادل، وهو يعمل في مصنع للبلاط يمتلكه أبوه. إنه من عين كارم».

كانت عين كارم قرية، لكنها الآن ضاحية من ضواحي القدس.

ابتسمت باسمة، وعانقتني بشدة، ثم فارقتني عند نهاية الشارع لتذهب إلى منزلها، ومضيت أنا ومنيرة في طريقنا للمنزل.

«إذن يا منيرة، أخبريني، عن زوجك المستقبلي...».

«ليس أكيدًا أن يصبح زوجي! فكما قلت لك: سوف يأتي الأسبوع القادم، وسأرى ما سيحدث، لكن من المحتمل ألا يحدث شيء، فحتى لو أعجبني سوف يرفض أبي هذا الزواج».

«لماذا؟».

«هل تعرفين جارتنا أم سامي؟ إنها أردنية».

هذا يعني أنه أردني. لذلك حاولت أن أرفع معنوياتها.

«هذا لا يهم يا منيرة، فأنت لن تذهبي لأي مكان. أنا أريدك أن تصبحي نسيبتي، سوف أسأل أحمد إن كان له أخ عزب يتزوجك»؟

عندما التقيت أحمد لاحقًا سألته إن كان لديه قريب في عائلته يريد أن يتزوج منيرة؟ ضحك أحمد، وصافحني.

obeikandl.com

«كيف حال حبيبتي؟ وكيف حالك يا منيرة؟ إذن تحتاجين إلى رفيق، وتريدين من فدوى أن تساعدك، أليس كذلك؟ آسف، لكن أخويّ العزبين لا ينفعانك؛ لأن عمريهما لا يتجاوزان العاشرة والثانية عشرة».

ضحكت منيرة.

«ليس هناك مشكلة. سأربي أخاك ذا الثانية عشرة حتى يكبر، ثم أتزوجه».

ضحكنا جميعًا، ثم ذهبت منيرة لتجلس بعيدًا عنا، وأخرجت كتبها؛ لتذاكر. جلست أنا وأحمد على الصخرة، وأخبرته عن باسمة وعادل، وطلبت منه الإذن للذهاب مع باسمة للقاء عادل. نظر إلي، وابتسم.

«ما الأمر؟! هل قلت نكتة جعلتك تبتسم؟».

«أنت فعلًا تهتمين لأمري. أنت فعلًا تحبينني».

«اعتقدت أنك تعرف ذلك منذ وقت طويل».

«فدوى، كل يوم حبك يكبر في قلبي. شكرًا؛ لأنك أخبرتني. أنا أثق بك».

ثم أقنعته بأن نحفر أول حروف اسمينا على صخرتنا، بحثنا حولنا في العشب، ووجدنا مسمارًا، فأعطاني أحمد المسمار، قائلًا:

«حسنًا يا فدوى، اكتبي أنت أولًا».

كتبت: «أ- حب»، ثم ناولت أحمد المسمار، وكتب هو: «ف- حب».

بعد أن كتبنا حرفي اسمينا الأولين على الصخرة بدأ العشاق السريّون يلتقون هناك، وأصبحت الصخرة مكانًا مشهورًا يقصده العشاق.

لكن نهاية سرنا كانت وشيكة.

«فدوى، لقد أخبرت والديّ وأختي عنك، عائلتي كلها تود التعرف إليك، أمي وأبي قالا لي: «لا تلعب يا أحمد، بعواطف هذه الفتاة، فإن كنت تحبها فسوف أذهب لوالديها، وأرتب خِطبتك بها». لكنني قلت لأبي: إن علينا أن ننتظر حتى انتهاء دراستنا الثانوية، وحتى انتهاء سنتي الخدمة العسكرية».

obeikandl.com

جلست مصعوقة لحظة.

«لا تقلقي يا فدوى. تزوج والداي عن حب، وهما يتفهمان الأمر، لا تخافي من مقابلتهما».

سألت: «أين؟».

«في منزلنا، أعرف أنك مرعوبة، لكن بعد عامين ونصف من معرفتك بي يجب أن تكوني واثقة من أنني لن أؤذيك أبدًا».

«وماذا عن الجيران؟ سوف يروننني أدخل بيتكم».

«لدي أختان: واحدة أصغر منك بعام؛ اسمها صفاء، والأخرى في عمرك نفسه؛ اسمها سناء يمكنك أن تأتي لمنزلنا بصفتك صديقة لأختيّ، اللتين ستنتظرانك خارج باب المنزل، فقط أخبريني باليوم والوقت الذي تودين الحضور فيه».

أخبرته بأنني سأعلمه بذلك، ثم تحدثنا قليلًا عن خططنا المستقبلية.

«فدوى، هل ستنتظرينني حتى أنهي عاميّ خدمتي العسكرية؟».

«نعم، بالطبع، والآن حان الوقت لأغادر يا أحمد».

ناديت على منيرة لتأتي، وودعت أحمد.

«وداعًا حبيبي أحمد، ستبقى دائمًا في قلبي».

«وداعًا حبيبتي فدوى، قلبي معك».

وفي طريقنا للمنزل أخبرت منيرة بأن أحمد يريدني أن أزوره في منزله؛ لأقابل عائلته.

بدت منيرة مستغرقة في التفكير لحظة.

«فدوى، أنت دائمًا تفكرين جيدًا في الأمور، وتتخذين القرارات الصحيحة، وأنت تعرفينه أكثر من أي شخص آخر».

«أنا لست خائفة منه! أنا خائفة أن يراني أحد من الجيران أذهب إلى هناك، ويخبر بهجت، أنت تعرفين طبع بهجت، فأنا أخاف منه دون الناس جميعًا».

«آه، نعم، أعرف».

openkandil.com

اضـطررنا إلى التوقف عن الحديث، عندما وصـلنا إلى بيت منيرة. لقد كانت متوترة أن تدخل المنزل؛ لأنها كانت سـتلتقي الشـاب الـذي يطلب يدها للزواج. لم يكـن أبوها موجودًا؛ لذلك كانت الفرصـة متاحة أمامها لتقرر إذا كان الشـاب يعجبها أم لا قبل أن يقول والدها أي شيء. كان أبومنيرة مدير مصرف في أبوظبي في الإمارات العربية المتحدة، وقد عمل جنديًّا أيضًـا في الحرب الأهلية بين الفلسطينيين والأردنيين. وهو يأتي مرة في العام؛ ليزور عائلته؛ لأن الشـركة التي يعمل فيها لا تسمح له بأن يأخذ عائلته معه؛ حتى لا تدفع مصاريف إضافية. لذلك بقيت خالتي في منزلها في الأردن تربي خمسة أبناء، أربعة أولاد وبنتًا واحدة (منيرة)، بينما كان زوجها يرسل لهم المال.

كنـت فـي بيت منيـرة، عندما جـاء ذاك الشـاب، (سـعيد)، ووالداه من خـارج البلاد ليخطبوها، جلسـوا جميعًا في غرفة المعيشة، بينما كنت أنا ومنيرة في المطبخ نحضر الشاي للضيوف. ثم نادت خالتي على منيرة لتجلب الشاي، لكن الأهم من ذلك نادتها لتقابل (سعيد) وترى إن كان يعجب أحدهما الآخر. جلسـت منيرة مع سـعيد ووالديه مدة ٢٠ دقيقة، ثم عادت إلى المطبخ.

«فدوى، أعتقد أنه يعجبني».

سـمعنا خالتي تقول: إنها سـتتحدث مـع والد منيرة حول الموضـوع، وسـوف يعلمونهم بقرارهم لاحقًا، وقالت أم سـعيد: إنه سـيبقى في الأردن مدة شهرين. وبعد أن غادروا المنزل أسرعت خالتي نحو المطبخ لتسأل منيرة إن كان أعجبها سعيد؟

«نعم» أجابت منيرة بحياء.

كانـت خالتـي ذات عقـل أكثـر انفتاحًا من أمي بخصـوص هـذه الأمور. فقـد كنا نلقي الدعابات أمامها.

قلت أنا: «حب من أول نظرة!».

ابتسمت خالتي.

«يمكن أن يدهشكما ما سأقوله، لكني أنا أيضًا أعرف ما هو الحب».

صُدمت أنا ومنيرة.

«خالتي! من أحببتِ في حياتك كلها؟».

ابتسمت خالتي ابتسامة عريضة.

«كان زمانـي مختلفًـا، فأنتم تتمتعون بحريـة أكبر الآن. فعندما كنا نعيش في فلسـطين كان والداي يطلبان مني ومن أمك أن نذهب للبئر لنجلب الماء للمنزل، وفي طريقنا رأينا ابن عمنا الذي اعتاد أن يزورنا في المنزل، وكان أبي يطلب مني تحضـير الشـاي وجلبه إلى غرفة المعيشة، وفي كل مرة أراه فيها كنت أتمنى أن أتزوجه، لكن لم يحدث ذلك أبدًا. فعلى الرغم من أنه بادلني مشاعري إلا أنه كان خائفًا من إخبار أبي، لا أدري لماذا».

تنهدت أنا ومنيرة.

«آه يا خالتي!».

«آه يا أمي!».

ابتسـمت خالتي، ثم أخذتنا إلى مركز اتصـالات قريب لتتصـل بزوجها. وفور أن أنهت كلامها حول اللقاء مع سعيد سألها زوجها فجأة إن كان سعيد فلسطينيًّا أم أردنيًّا؟

«إنه أردني».

«لا، لا. انسي الموضوع، ولا تناقشيني في هذا الأمر مرة أخرى».

أنهت خالتي المكالمة الهاتفية، والتفتت لابنتها حائرة، ماذا ستقول!

«لا عليك يا أمي، ليس عليك أن تقولي أي شيء لقد سمعت».

بعد بضـعة أيام، وبينما كنت أنا ومنيرة نمشـي في الشارع توقف سعيد بسيارته ليتحدث معنا غير مهتم بالناس الموجودين في المنطقة، أنزل زجاج نافذة السيارة، وحيّانا.

«لقد أخبرتني أمي بما حدث».

علـى الرغـم من غياب الأمل فـي أن يتزوجا بدأا يتواعدان سـرًّا. ففي أثنـاء مدة بقائه فـي الأردن كان هـو ومنيرة يلتقيان مرة في الأسـبوع، لكن بعد شـهرين كان عليه العودة لعمله فـي السـعودية، وأعطاها رقم هاتفـه وبعض المال لتدفـع ثمن المكالمـات الهاتفية في مركز الاتصالات. وبقيا يتواصلان عامًا ونصف العام على أمل أن يغيّر والد منيرة رأيه.

obeikandl.com

في هذه الأثناء بدأت باسمة بمواعدة عادل ومقابلته مرة في الأسبوع عند صخرتي أنا وأحمد. لكن حكايتهما الرومانسية لم تدم طويلًا، فبعد أن التقيا بضع مرات اعترف عادل إلى باسمة بأنه متزوج، اختار له أبوه فتاة، لكن عادل رفضها، ما جعل أباه يغضب، ويهدده بأن يتخذ هذه الفتاة زوجة ثانية إن لم يتزوجها عادل.

«شعرت بالأسى نحو أمي؛ لذلك قبلت الزواج، لكنني لا أكنّ أي مشاعر لها».

وأخبرت باسمةُ عادلَ بأن أباها سيجبرها على الزواج من أحد أولاد عمها، عندما تنهي دراستها الثانوية، لكن على الرغم من هذه الاعترافات استمر الاثنان في رؤية بعضهما.

«فدوى، لقد أخبرتني مرة بأنه عندما يطرق الحب الباب لا تستطيعين أن توصدي الباب في وجهه، قائلة: «لا، أنا آسف».

لم أرد أنا أيضًا أن تنتهي علاقتي بأحمد، لذلك قررت مقابلة عائلته. فقد أخبرته باليوم والوقت، ومشيت الطريق المألوف إلى بيت أحمد، وعلى الرغم من أنني لم أدخل منزله أبدًا، لكني عرفت الطريق إليه تمامًا، كما أعرف الطريق لمنزلي، وعندما وصلت كانت أختا أحمد تنتظرانني في الداخل، ورحبتا بي لأدخل. بدا لي أنهما يعرفاني منذ زمن طويل، بعد أن دخلت عانقاني، وأرانني المنزل. كانت عائلة أحمد بأكملها تعيش في شقق في البناية نفسها، بمن فيهم عمه وأخته الكبرى المتزوجة.

«لا تخافي أن يراك أحد منهم هنا، فهم جميعًا يعرفون ما بينك وبين أحمد».

فوجئت بأن لأحمد هذه العائلة الكبيرة. حييتهم قائلة: «السلام عليكم».

وقفوا جميعًا، وقالوا: «وعليكم السلام».

قال لي أبوأحمد: «تعالي هنا يا ابنتي، اجلسي بيني وبين عمتك أم عادل، وهو اسم ابنها الأكبر (أم أحمد)».

أومأت برأسي خجلة، بينما بدأ يعرفني إلى كل شخص في العائلة.

«أنا وزوجتي لدينا اثنا عشر ابنًا: منهم ثلاثة شباب وشابة واحدة متزوجون، ولدينا أيضًا ثمانية أحفاد وكما ترين، ليس هناك متسع في غرفة المعيشة!».

وضعت أم أحمد يدها على ظهري، وقالت بحنان: «أنت أيضًا ابنتنا».

«شكرًا يا عمتي».

بعد أن عرفني أبوأحمد إلى كل واحد رحّب بي جميعهم في أحضان العائلة. جلسوا بضع دقائق، ثم غادر جميعهم كلٌّ إلى شقته، وكان أحمد طوال الوقت يراقب علامات الدهشة والذهول والحياء في تعابير وجهي، نظرت إليه، وابتسم إلي، أحضرت سناء الشاي لنا، وابتسمت سناء لأحمد، قائلة:

«أحمد، عليك أن تري فدوى المفاجأة!».

«أي مفاجأة؟ أهناك مفاجأة أكبر من هذا كله؟».

أومأت صفاء برأسها، ورجت أحمد أن يعطيها مفتاح غرفته؛ حتى تريني هذه المفاجأة، أعطاها أحمد المفتاح، وأخذتني إلى سطح البناية، حيث توجد غرفة أحمد».

«فدوى، عليك أن تري تلك المفاجأة بعد ذلك، سنذهب، ونكمل احتساء الشاي».

عندما فتحت صفاء الباب لم تسعفني الكلمات لأعبر عن مشاعري. فقد رسم أحمد لوحة لي على جدار غرفته، مستخدمًا قلم الرصاص فقط، لم أصدق كم كانت تلك اللوحة رائعة، وقفت بلا حراك أتمعن فيها، تفيض مني المشاعر، لم أرد لأي شيء أن يتغيّر.

قبل ثلاثة أشهر من تخرجي في المدرسة الثانوية كنت أرافق باسمة لترى عادل، لم أتوقع أن أرى أحمد، لكن ها هو ذا قادم نحو الصخرة يرافقه صديقه. أوقف عادل سيارته، وأنزل زجاج النافذة ليتحدث مع باسمة، ثم التفت، فإذا أحمد نحوي محركًا شفتيه بصمت ليشير إلي أنه يريد التحدث معي على انفراد، وبعد أن قطعنا الشارع كان أحمد يرتعد غضبًا.

«لماذا تتحدثين مع ذلك الشاب؟».

«إنه رفيق باسمة، لقد أخبرتك من قبل! ألا تتذكر؟».

«نعم، لكنك لم تخبريني بأن عادل هو رفيقها!».

«لأنني لم أعرف اسمه في ذلك الحين، لم أعرف أنك تعرفه».

«ألا تعلمين أيضًا أنه يعرف أخاك بهجت؟».

obeikandl.com

أصبح وجهي شاحبًا.

«هل أنت جادّ يا أحمد؟ أم تريد فقط أن تخيفني؟».

«نعم، أنا جادّ اذهبي، واسألیه بنفسك إن كنت لا تصدقينني، وعندما تفعلين ذلك تأكدي ألا يقول كلمة عنا أمام بهجت، عديني ألا تتحدثي معه ثانية».

«لكن باسمة صديقتي، وأنا أساعدها، فكما تعلم لا تستطيع أن تكون معه وحدها».

«أفهم ذلك يا فدوى، لكن لا أريدك أن تتكلمي معه، فأنا لا أثق به، وأخاف مما سيحدث لك إن اكتشف بهجت الأمر».

غادر أحمد، لم أَرَه غاضبًا كل هذا الغضب من قبل، ظللت أنادي عليه، لكنه لم يرد.

رجعت إلى المكان الذي كانت باسمة وعادل يقفان فيه، وسألت عادل إن كان يعرف أخي؟

«نعم، أنا أعرفه».

«أنا لست غبيًّا يا فدوى، وأحترمك، كما أحترم أختي، لن أقول له شيئًا».

رجعت إلى البيت، وما زلت أفكر في أحمد، متسائلة إن كان لا يزال منزعجًا، بحثت عن قلم وورقة، وكتبت عليها كلمات أغنية لوردة اسمها (**وحشتوني**). وفي الصباح المقبل رأيت أحمد على الجانب الآخر من الطريق، فحركت له شفتيّ مشيرة إليه بأنني أريد التحدث معه، مشيت أنا ومنيرة ببطء، حتى دخل جميع الطلاب الآخرين المدرسة، ثم ركضت مسرعة نحو الصخرة. ولأن حائط المدرسة كان عاليًا لم يستطع أحد رؤيتنا، أعطيته كلمات الأغنية التي كتبتها، وفي أثناء ذلك لمست يدي يده، عندما مرت الورقة بينهما، ما جعل كلمة (آسف) تخرج من فمينا في اللحظة نفسها، وكلنا ارتباك، ضحكنا، وذهبنا لصفينا بسرعة.

كان من هوايات أحمد الغناء وعزف الطبلة في الأعراس، وفي إحدى الأمسيات كان هناك عرس بالقرب من منزل باسمة أخبرتني باسمة لاحقًا بأنها سمعت صوتًا عاليًا قادمًا من سماعة ينادي اسم «فدوى». ارتدت حجابها، وانطلقت خارجًا، ولأنها كانت حفلة للرجال والأولاد، اكتفت الفتيات بالتفرج من سطوح المنازل أو من مسافة بعيدة، صعدت باسمة إلى سطح منزلها، واكتشفت أن أحمد يغني لي أغنية حب.

obeikandl.com

«أردت أن أخبرك فورًا، لكن ليس عندنا هاتف يا فدوى. لذلك نزلت من أعلى السطح، وطلبت من أمي إن كنت أستطيع أن أزورك لتساعديني على واجبات الرياضيات، ركضت نحو منزلك، ولاقيت أمك، وأنا داخلة إليه. إنها سيدة رائعة يا فدوى، ثم جئت هنا لأخبرك! هل أنت سعيدة؟».

«نعم، أنا سعيدة يا باسمة».

لكني شعرت بالخوف أكثر من شعوري بالسعادة. فقد كان من الصعب على أحمد الإبقاء على مشاعره طي الكتمان، وحتى أصدقائي أصبحوا الآن وشيكين على ارتكاب خطأ، وذلك جعلني أتساءل كم من الوقت سيمضي قبل أن تعرف عائلتي، وماذا سيحدث، عندما يعرفون حكايتي مع أحمد؟!

obeikandl.com